﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

[الأنفال: 43 - 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلهما:

تـوالي ألـطـافِ الـلـه تـعـالى بـالـمـؤمـنـين، في غزوة بدرٍ الكبرى

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ موضعَ الفريقين يومَ بدرٍ، وصوَّرَ حالَهم في ذلك الوقتِ، زاده بيانًا وإيضاحًا، بما أشارَ إليه من لُطفِ تدبيرِه في مدّةِ نزولِهم بالعُدْوةِ الدُّنيا، فإنَّ هذهِ الرُّؤيا ممّا اشتملَ عليه زمانُ نزولِ المؤمنين بعُدْوةِ بدرٍ، ثمّ لمّا بيَّنَ ما نشأ عن رؤيتِه ﷺ من قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ، لو وقعت، أتبعَه ما فعلَ منَ اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفسِهم يقظةً، فقال: ﴿وَإِذْ﴾، أي: واذكروا أيضًا ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾: فشِلَ يَفْشَلُ عندَ الحربِ والشّدّةِ ويضعفُ، وإنّه لَخَشِلٌ فشِلٌ، والفَشِلُ: الجَبانُ المرعوبُ، يُبهَتُ عند الرَّوع، لا يُحسِنُ قتالًا ولا شِرادًا[2]، قال اللّهُ جلّ وعزّ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]، قال الزّجّاج: أي: تجبُنوا عن عدوّكم إذا اختلفتُم[3]. والفَشَلُ: هو الفزعُ والجُبنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(2) الخليل، العين: (فشل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فشل).

والضَّعفُ[1]، ويدلُّ على ضعف القلبِ وخَوَرِ الجَنانِ. وذهب بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ الفشلَ هو ضَعْفٌ مع جُبْن[2].

2) ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: يدورُ معنى النّزْعِ على القَلْع، يقالُ نَزَعَ الشّيءَ يَنزِعُه نزعًا، فهو مَنزوعٌ ونَزيعٌ، ويأتي منه معنى المطاوعة، يُقال: انتَزَعَه فانتَزَعَ؛ أي: اقتَلَعَه فاقتَلَعَ. والتّنازُعُ والمنازَعةُ: المجاذَبةُ، ويُعبَّرُ بهما عنِ المخاصمة والمجادلة[3]. ويُقال: "تنازُعٌ على البقاء: صِراعٌ بين كائنات النّوعِ الواحدِ للحصول على القوتِ والغذاءِ، من أجل البقاءِ والوجودِ، وتكون فيه الغَلَبةُ للأفضل"[4]. (تنازع) القَوم: اختلفوا، ويُقال: تنازعوا في الشَّيء، والقَومُ الشَّيءَ: تجاذَبوه[5].

3) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: هي الأشياءُ الموجودةُ في الصّدور، وهي الأسرارُ والضّمائرُ والمعتقداتُ والظّنونُ، فإنّها لمّا كانَت مضمَرةً في الصّدور، حالّةً فيها، مصاحبةً لها، سُمّيَت ذاتَ الصّدور، وذهب بعضُهم إلى أنّ المرادَ القلوبُ الّتي في الصّدور[6].

4) ﴿ٱلْتَقَيْتُمْ﴾: اللّقاء، توافي الاثنين متقابلَيْن؛ أي: استقبالُ الشّيءِ ومصادفتُه معًا على سبيلِ المواجهةِ والتَّماسِّ، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسّ، وبالبصر، وبالبصيرة، واللّقاء. والالتقاءُ في الأصل الحضورُ لدى الغير، من صديقٍ أو عدوٍّ، وفي خيرٍ أو شرٍّ، وقد كَثُرَ إطلاقُه على الحضور مع الأعداء في القتال[7]، قال النّابغة[8]:

إذا ما التَقَى الجَمعانِ حَلَّقَ فوقَهُم *** عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدي بعَصائِبِ

وروِيَ في غريب الحديث: «إذا التقى الصّفّان في سَبيل اللّه، فُتِحَت أبوابُ السَّماء وأبوابُ الجنَّة»[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فشل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/231.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بقي).
(5) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (نزع).
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(8) الخليل، العين: (عصب).
(9) الزّمخشريّ، الفائق: 1/315.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ الـرّؤيـةِ المـنـامـيّـةِ والـواقـعـيّـةِ للعدوّ؛ تمهيدًا لنصر المؤمنين عليهم

واذكرْ - أيُّها النّبيُّ - حينما أراك اللّهُ قبلَ يومِ بدرٍ قلَّةَ عددِ عدوِّك في منامِك، وأنّهم مهزومون، فأخبرتَ المؤمنين بذلك، فقويَت قلوبُهم، واجترؤوا على حربِهم، ولو أراك ربُّك عدوَّهم كثيرًا لفشلَ أصحابُك، فجَبُنوا ولم يقدروا على حربِ القومِ، ولَتنازعوا في ذلكَ، ولكنّ اللّه سلّمهم من ذلك، بما أراكَ في منامِك منَ الرُّؤيا، إنّهُ عليمٌ بخفايا الصُّدورِ، لا يخفى عليه شيءٌ ممّا تضمرُه القلوبُ.

واذكروا أيُّها المؤمنونَ حينما أراكمُ اللّهُ الأعداءَ في أرضِ المعركةِ قليلًا، وهم كثيرٌ عددُهم، وقلَّلَكم في أعينِهم؛ ليتركوا الاستعدادَ لحربِكم، فتهونَ على المؤمنينَ شوكتُهم، حتّى يقضيَ اللّهُ بينَكم ما قضى من قتالِ بعضِكم بعضًا، وإظهارِكم على أعدائِكم منَ المشركينَ والظَّفرِ بهم، لِتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العليا، وكلمةُ الّذين كفروا السُّفلى، وإلى اللّهِ مصيرُ الأمورِ كلِّها، فيجازي كُلًّا بما يستحقُّ؛ المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءَتِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ تصديرِ الآيةِ بـ﴿إِذْ﴾ ودلالتها:

تنوّعُ الحوادثِ يومَ الفرقانِ مرتبطٌ بعِظَمِ ما وقعَ فيه منَ الأحداثِ

لمّا كان تصديرُ الكلامِ بظرفِ الزّمانِ (إذ) لما عظمَ شأنُه، دلَّ على عظمِ شأنِ زمنِ إراءةِ اللّهِ رسولَه ﷺ العدوَّ في منامِه قليلًا في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، وتعظيمُ شأنِ الظّرف لعظمِ مظروفِه، وما وقع فيه منَ الأحداثِ.

ويَحتملُ ظرفُ الزّمانِ ﴿إِذْ﴾ أن يكونَ بدلًا من يومِ الفرقانِ، وهو الأحسنُ، وبيانُه أنَّه لمّا جاء ﴿إِذْ﴾ بدلًا من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جيءَ ببدلٍ ثانٍ؛ ليُشعِرَ تكرّرُ الظَّرفِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/569 - 573.

سبيلِ البدلِ بتنوّع الحوادثِ العظامِ الّتي وقعَت يومَ الفرقانِ، وليكون مجموعُ البدل والمبدَل منه أكثرَ بيانًا وإيضاحًا للمعنى.

ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديره: (اذكُروا)؛ لتذكير جميعِ المخاطَبين بالقرآن، بظهور معجزةِ اللّه يومَ بدرٍ. ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا مُتعلِّقًا بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يعلمُ المصالح؛ إذ يقلِّلُهم في عينِك، في مَنامِكَ في رؤياك، فتفيد ﴿إِذْ﴾ حينئذٍ التّعليلَ أيضًا، ليكونَ الكلامُ على معنى الاستدلالِ لإظهارِ الحجّة وبيانِها لجميعِ المؤمنين[1].

مناسبةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾:

استحضارُ صورةِ المنامِ العجيبةِ من المعجزات الخوارق

أفادَ التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ استحضارَ صورةِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ في نفس النّبيّ ﷺ، وفي نفوس أصحابِه، وفي نفوس المتدبّرين لهذا القرآن[2] – وذلك أنّ النّبيَّ ﷺ رأى في المنام أنّ العدوَّ قليلٌ قبل أن يلتقوا، فأخبر أصحابَه بما رأى في المنام، فقالوا: رؤيا النّبيِّ ﷺ حقٌّ، والقومُ قلّةٌ، فلمّا التقوا ببدرٍ قلَّلَ اللّهُ المشركين في أعين المؤمنين؛ لتصديقِ رؤيا النّبوّة الّتي لا تنطقُ عنِ الهوى[3].

نكتةُ إسنادِ الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌ بمَدلولِها

أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللّهِ تعالى في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌ بمَدلولِها[4]؛ "أي: إنّه تعالى سميعٌ لما يقولُ أصحابُك، عليمٌ بما يُضمِرونه، إذ يُريك اللّهُ عددَ عدوِّك وعدوِّهم قليلًا في الرّؤيا المناميّة، فتخبرُ بها المؤمنينَ، وتطمئنُّ قلوبُهم، وتقوى آمالُهم بالنّصر، فيجترئون عليهم"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/534.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/23.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(5) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/10.

بلاغةُ الاحتراس في الجار والمجرور ﴿فِي مَنَامِكَ﴾:

برؤيا الرّسولِ الأعظم، في منامِه الأعظم، كانت الآيةُ أنضرَ وأبهرَ

الإطنابُ في قوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؛ للاحتراس من أن يُظنَّ أن يكونَ المرادُ من قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الرّؤيةَ البصريّةَ أو القلبيّةَ، فهو لدفعِ ما قد يُتوهّمُ من خلافِ المقصودِ، وللتّأكيد على أنّها الرّؤيةُ الحُلميّةُ، فبها تكون الآيةُ أعظمَ وأظهرَ، وعليه جميعُ المفسّرين[1].

نكتةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَنَامِكَ﴾:

الإراءةُ كانَت في النّوم، ولله في أحوال العباد شؤونٌ وتصريفاتٌ

لمّا كان لفظُ ﴿مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مصدرًا ميميًّا، وليس ظرفَ مكانٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ به نومُك، وعُبِّرَ بالمصدر الميميّ، دون أن يقولَ: (في نومِك)؛ للإشعار بأنَّ الإراءةَ في النّوم كانت في الموضِع المعتادِ للنّوم، وإنّما قال: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾، فأسندَ الرُّؤيةَ إلى ما كان في النّوم؛ للإيذانِ بأنّها في مقامِ الرّؤيةِ الحقيقيّةِ على سبيلِ الاستعارةِ، فكأنّه أطلقَ العينَ على حاسّة الخيالِ تشبيهًا لها بالعين الباصرةِ، في كونها سببًا لإدراك المحسوساتِ العينيّةِ، وحاسّةُ الخيالِ كذلك يُدرَكُ بها في حال غيابِ المادّة[2].

بلاغةُ الشّرطِ في قوله: ﴿وَلَوْ﴾:

إظهارُ منّةِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللهُ رسولَه في الرُّؤيا

لمّا كانَت (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ تفيدُ تعليقَ حصولِ فشلِ المؤمنين وتنازعِهم على حصولِ الشَّرطِ، وهو إراءةُ اللهِ رسولَه المشركين كثيرًا الّتي قطعَ بانتفائها، كان المعنى تعليقَ امتناعِ فشلِهم وتنازعِهم على ما قطعَ بامتناعِه، وهو إراءَةُ اللهِ رسولَه العددَ كثيرًا، ففي التّعبيرِ حصرُ امتناعِ الفشلِ والتّنازعِ على امتناعِ إراءَةِ اللهِ رسولَه العددَ كثيرًا؛ إظهارًا لمنّةِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللهُ رسولَه في الرُّؤيا.

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2836، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/419، وحاشية محيي الدّين شيخ زاده: 4/398.

دلالةُ اللّام الرّابطةِ لجواب (لو):

دلالـــةُ الـــلّام على التَّسويفِ والتَّأكيدِ، زيادةٌ في البيانِ المفيدِ

هذهِ اللّامُ في قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ رابطةٌ لجوابِ ﴿وَلَوْ﴾ بالشَّرطِ، وتُسمَّى لامَ التَّسويف[1]؛ لأنَّها تدلُّ على تأخير وقوعِ الجوابِ عنِ الشّرط، وتراخيه عنه في الزّمن، والمعنى: لو أراكهم رؤيا مماثلةً للحالة الّتي تبصرُها الأعين، وما كانوا عليه في الواقعِ منَ الكثرة، وحدَّثتَ بها المؤمنين، لجبنتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقَت فيما تصنعون كلمتُكم، وترجّحتُم بين الثّباتِ والفرارِ. كما تفيدُ التَّأكيدَ[2]، بمعنى: تأكيدِ تقريرِ الفشلِ لو تحقَّقَ الشّرطُ، وبمعنى تأكيد ارتباطِ الجزاءِ بالشّرطِ؛ أي: لو أراكَهُم كثيرًا فلا يقعُ سوى الفشلِ والتّنازعِ في الأمرِ؛ أي: القتالِ.

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾:

الفشلُ والخوفُ لا تتأتّى نسبتُه إلى رسولِ الله المعصوم

عُدِلَ في الكلام عن مخاطبة النّبيّ ﷺ إلى خطاب المؤمنين؛ إذِ الفشلُ والخوفُ لا يناسبُ نسبتُه إليه ﷺ؛ إظهارًا لشرفِ رسول اللّه، وتلطُّفًا به ﷺ، ولأجلِ عصمتِه منَ الفشلِ والنّقائصِ كذلك، ولهذا لوِّنَ الخطابُ عنه إليهم، فأُسنِدَ الفشلُ إلى مَن يُتَصَوَّرُ منه ذلك، وهذا من محاسنِ التّعبيرِ القرآنيّ[3].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾:

الـتّـنـازعُ فيه معنى التّخاصمِ والتّخالفِ، وهو مذمومٌ مشؤومٌ

عَبَّرَ في قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ بصيغةِ التّفاعلِ المفيدِ معنى الاشتراكِ، بمعنى: أن يكونَ كلٌّ واحدٍ فاعلًا في اللّفظ، مفعولًا في المعنى، والمعنى: كلُّ واحدٍ مشاركٌ صاحبَه في التّنازعِ، صريحًا من غيرِ سبقِ لواحدٍ على آخر في التّنازعِ، وفي اللّفظ معنى التّخاصمِ والتّجاذبِ والتّخالفِ؛ بأن يَنزَعَ كلُّ واحدٍ مَنْزَعًا خِلافَ مَنْزَعِ صاحبِه[4].

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/424، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/92.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 225، وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.
(4) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/100، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289.

مناسبةُ العطفِ في جواب الشّرط:

لمّا جاءَ الجزاءُ في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ معطوفًا؛ دلَّ على أنَّ الشّرطَ لو وقعَ؛ لوقعَ الفشلُ والتّنازعُ كلاهما، وفيه إشعارٌ بأنَّ وقوعَهما يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، والنّتيجةُ معلومةٌ سلفًا، ومُدرَكةٌ باعتبار أنّ النّتائجَ مُترتِّبةٌ على المُقدّمات، ومعنى: "﴿لَفَشِلْتُمْ﴾: لجبُنْتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقَت فيما تصنعون كلمتُكم، وتأرجحتُم بين الثّبات والفِرار، ولكِنَّ اللّه سَلَّمَ؛ أي: عَصَم وأنعَمَ بالسّلامة منَ الفشل والتّنازع[1].

وقـوعُ الفشلِ والتّنازعِ يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، وهما متلازمان

سببُ إيثارِ تقديمِ الفشلِ على التّنازع:

لمّا كان التّنازعُ سببًا للفشلِ، لِقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46]، كان تقديمُ الفشلِ على التّنازع هنا في قوله: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾؛ لتعظيمِ المنَّة، بتقديم مُسبَّبِ التّنازع ونتيجته؛ لأنّه الأهمُّ بمقتضى المقام، فالفشلُ يعني الهزيمةَ، وللإشعارِ بأنَّ الفشلَ قد يحصلُ من غير تنازعٍ، بأن يكونَ له أسبابٌ أخرى.

الفشلُ مُسبَّبٌ عنِ التّنازع، ونتيجةٌ لا مندوحةَ عنها

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

تفيدُ (أل) في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ العهدَ، والمعنى: الأمرُ الّذي تعهدونه، وهو القتالُ أو لقاءُ العدوِّ. أو تكون عِوضًا عنِ المضاف إليه؛ أي: (أمرِ القتال)[2]؛ للإشعارِ بأنّ أمرَ القتالِ في أذهانِكم، وأنّكم لم تنسوه بعدُ؛ لعِظَمِ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ العظام، والآياتِ البيّنات.

خيارُ طاعة الله ورضاه حمايةٌ من مَغبّات التّنازعِ والفشلِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

عبّر بلفظ الأمر دونَ القتالِ في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾؛ لما يفيدُه اللّفظُ من معنى الشّأنِ الّذي يشملُ أيضًا لقاءَ العدوِّ، وما

عبَّرَ بلفظ الأمرِ؛ لتعظيمِ شأنِ لقاء العدوِّ يومَ الفرقانِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/108.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

يَعرِضُ فيه منَ الأحوالِ الّتي تصاحبه، كما أنَّ فيه تفخيمًا لشأنِ القتالِ في ذلك اليوم.

دلالةُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكيّة:

تفيدُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكَ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، بمعنى رفعِ ما يُتوهَّمُ من وقوعِ المؤمنين في الفشلِ والتّنازع، ولمّا كانَت (لو) تفيدُ امتناعَ وقوعِهما كان مجيءُ الاستدراكِ على معنى تأكيدِ امتناعِ الوقوعِ وتقريرِه[1]، بمعنى: أنّه "لو تركَكم ترونهم كثيرًا، دون أن يُثَبِّتَكم بهذه الرّؤيا لهبتُموهم، ولتردَّدتُم في قتالهم، ولعجزتُم، وكان التّنازعُ في الإقدام وعدمِه، ولكنّ اللّه سلّم من ذلك، ونجّى من عواقبه"[2].

تأكيدُ السّلامةِ من وقوعِ الفشلِ والتّنازع؛ لحفظ الله للأمّة

مناسبةُ الاستدراكِ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾:

لمّا كانَ الاستدراكُ على معنى: (لكنّ اللّه لم يُرِ رسولَه المشركين كثيرًا، فلم تفشلوا، ولم تتنازعوا) عَبَّرَ عن انتفاءِ اللّازم بانتفاءِ الملزوم، بما هو أعمُّ منهما، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ ليكونَ أوعبَ فائدةً، وللإشعار بالسّبب؛ لتقريرِ أنّ الأمرَ كلَّه للّه، ولإظهار نعمةِ اللّه عليهم، بمعنى: أنّكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا، لأنَّ اللّه أنعمَ عليكم بالسّلامةِ منهما، وممّا يصحبُهما منَ الضُّرِّ والأذى[3]، ولا مكانَ للفشلِ والنّزاعِ، مادامتِ الأمّةُ معتصمةً بحبل اللّه الّذي لا تنفصِمُ عُراه.

كما سلّم اللهُ الأمّةَ منَ الفشل والتّنازع فيما مضى، كذلك يفعلُ فيما يأتي

بلاغةُ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾:

حُذِفَ المفعولُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ، فيتناولَ كلَّ ما سلَّم اللّهُ في ذلك الوقتِ، وفي تلكَ الحالة،

حذفُ المفعولِ لإفادة العمومِ، من حُسن البيانِ في السّياق

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/383.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.

ليكون التَّقديرُ: ولكنَّ اللَّهَ سلّمَ منَ الفشل والتّنازع، بأن سلّمَكم من سببهما، وهو إراءتُكم واقعَ عدد المشركين؛ لأنّ الاطّلاعَ على كثرة العدوّ يلقي في النّفوس تهيُّبًا، وسلَّمَ منَ الهزيمةِ، وسلَّمَ منَ العدوّ، وسلَّم أمرَه فيهم، حتّى نفذَ ما حكم فيهم به من هلاكهم، وسلَّم أمرَكم لكم، ونحوه منَ التّقديراتِ الّتي تندرجُ فيما ذكر، بقرينة المقامِ، فسلَّم اللّهُ ذلكَ كلَّه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿سَلَّمَ﴾:

التّعبيرُ بلفظِ (سَلَّمَ)، المفيد عموم السّلامةِ من كلِّ مُتخوَّفٍ

عبّر بلفظ ﴿سَلَّمَ﴾ دون غيرِه؛ لأنَّه لفظٌ يعمُّ السّلامةَ من كلِّ مُتخوَّفٍ، اتّصلَ بالأمر أو عرضَ في وجهه؛ أي: إنَّه لم يلحقهم أيُّ عيوبٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، ولم يُصِبْهم أيُّ نقصٍ، وفي اللَّفظ معنى البقاءِ، والغنى، والعزِّ، والصّحةِ، والعافية[2].

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ:

تعظيمُ عنايةِ اللّه لأمرِ المؤمنين، سلامةٌ منَ الأذى في كلِّ حين

وُضِعَ الظّاهرُ مَوضعَ المضمَرِ في لفظِ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، دون أن يقولَ: ولكنّه سلّم؛ لإحضارِ الاسمِ الجليلِ بعينِه، وباسمٍ مختصٍّ به؛ لقصدِ إسنادِ ذلك إلى اللّه، ولتأكيدِ المعنى وتقريرِه، وللاهتمامِ بهذا الحادث، وللإشعارِ بعظمِ شأنِ الأمرِ، وبعظمِ عنايةِ اللّهِ تعالى به؛ فلا يصدرنَّ ذلك إلّا عن باهرِ السّلطان[3].

مناسبةُ مجيءِ الخبر جملةً فعليّةً ﴿سَلَّمَ﴾:

تقويةُ الإسنادِ لتأكيدِ المعنى من لطائفِ الإبانةِ عنِ المراد

جاء الخبرُ جملةً فعليّةً في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ لتقوية الإسنادِ وتأكيدِه، فهو على معنى تكرير الإسناد لعودِ الضّمير على المسنَدِ إليه[4].

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/323، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/120، والتّفتازانيّ، المُطوّل، ص: 215 - 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ بالجملة التّعليليّة:

من كمال اليقين الجزمُ بأنّ اللهَ يعلمُ ما تخفي الصّدور

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليّةٌ، جاءَت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ تقديرُه: (لمَ فعلَ بهم ما فعل منَ الإراءةِ وغيرِها ؟) فكان الجوابُ: لأنّه يعلمُ مُضْمَراتِ صدورِهم، وخواطِرَها، وتأثُّرَها بالمشاهَداتِ والمحسوساتِ[1]؛ وبيانُ السّبب بالجملة الاستئنافيّة؛ يحرِّكُ السّامعين لأن يعلموا ويتقرّرَ عندهم أنَّ اللّه عليمٌ بخفايا الصّدور.

مناسبةُ الإضمارِ بعدَ الإظهار:

الإضمارُ لإيجاز يبينُ عنِ الدّلالة، في حالتي التّصريح والإيعاز

أضمرَ لفظَ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعَبَّر عنه بالضّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، لأنَّ المسنَدَ إليه في ذهنِ المخاطَبين لتقدُّم ذِكره، فأُضمِرَ إيجازًا، وهو تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنّه ليس هناك أيَّةُ قرينةٍ صارفةٍ للمعنى إلى غير الله، الّذي ثبَّتَهم بالرّؤيا، وحَماهُم من لأْواءِ الفشلِ، وفتنةِ التّنازعِ، فكان أمرُه مقضيًّا، وحكمُه مَرعيًّا، وحكمتُه ساريةً، وكفى اللّهُ المؤمنين من تلك العواقب العاتية؛ لأنّه عليمٌ بالقلوب وما تنطوي عليه، وهو يعلمُ السّرَّ وأخفى، فلا تخفى عنه خافية.

تتابعُ المؤكِّدات في السّياق:

في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أفادَت (إنّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة، كما دلَّت الجملةُ الاسميّةُ على تأكيدِ المعنى وثبوتِه، حتّى لا تبقى في النّفوس شائبةُ أنّ اللّه تعالى هو الّذي يُؤتي نصرَه مَن يشاء، وليسَت بقوّةِ استعدادِكم أو كثرتِكم. وكونه عَليمًا بذاتِ الصُّدورِ؛ بمعنى: أنّه يعلمُ ما سيكون في القلوب المنطويَةِ على الأفكار، والمحتويَةِ على الأسرار، منَ الشّجاعة والجُبْن، ومنَ المصابرة والجزع، ومنَ الثّبات والتّزلزل، ومنَ التّشبُّث والتّحوُّل، فكان حقيقًا بهذا النّمط منَ التّوكيد المكثّف، أن يجلّي قدرةَ اللّه المحيطة بعلم كلِّ شيءٍ، والّتي لا يُعجِزُها شيء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.

دلالات التّذييل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

فـوائـدُ التّذييلِ الـلّـغـويّـةُ والبلاغيّةُ، تُبرِز بيانَه وجمالَه

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيَّة هي[1]:

أولاً: لمّا جاء الكلامُ في سياق ذمِّ التّنازعِ في القتالِ وفي الغنيمةِ، وكانَ التّدبيرُ إنّما يصدرُ عن ذلك الموضع، ويرجعُ إليه، وكلُّ بني آدم خُصّوا بمعنى التّدبير؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالصّدور صدورُ البشر، فخَصَّهم بعلم ما تنطوي عليه صدورُهم، منَ الخواطرِ والبواعثِ والصّوارفِ؛ ليخرجَ الكلامُ مخرجَ التّحذيرِ لهم كي لا يُضْمِروا ما يخالفُ إيمانَهم، فإذا كان عالمًا بذاتِ الصُّدور فسيُظْهِرُ ما يشاءُ على رسوله وعلى المؤمنين، لذلك خَصَّ علمَه هنا بذاتِ الصّدور، وإن كان عالمًا بالكلِّ، بذات الصّدور وغير ذات الصّدور؛ لأنّه محيطٌ بكلّ شيءٍ علمًا.

ثانيًا: تفيدُ بمقتضى اللّازمِ معنى العمومِ، فمَن كان لا يخفى عليه ما كان مُضمَرًا في صدر المرءِ، ولا يعلمُه غيرُ صاحبه، ولا يمكن اطّلاعُ أحدٍ عليه – لا يخفى عليه القولُ سرًّا كان أو جهرًا.

ثالثًا: في جملة التّذييل معنى العمومِ والكلّيّةِ، فتكونُ جاريَةً مجرى المَثَلِ في الكلامِ.

التكثيف الدلالي في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

مُـضْـمَـراتُ الصّدورِ مدبِّرةٌ لـحـالِ البشرِ، الّـتـي يحكمُها قدرُ الله المقدور

لمّا كانتِ الأسرارُ والضَّمائرُ والخواطرُ، الحالَّةُ في الصُّدورِ المصاحبة لها، هي المدبّرةَ لحال البشرِ، المصرِّفةَ لأمورِهم، جُعلت كأنَّها مالكةٌ للصُّدور، فأفادَ لفظُ (ذاتِ)، ما لايفيدُه لو قيل: (إنّه عليمٌ بالصّدور أو بالقلوب)، فليس لفظُ (ذاتِ) مُقحَمًا، ولا من إضافة المسمَّى إلى اسمه[2]، ولكنّه أفاض من إضافته لفظ (ذات)

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/494، 10/33، ومكّيّ بن أبي طالب، الهداية: 12/7579.
(2) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/278 - 5/71.

إلى الصّدور على الجملة المكرَّسةِ لتأكيد معنًى عقائديٍّ جليلٍ، يتعلَّقُ بإحاطة علم اللّه بما يخبِّئه المتشاكسون، وتنطوي عليه صدورُهم، فتكون حركةُ قَدَرِه متماشيةً مع مُطلَقِ علمِه، فلا يكون إلّا ما أراد، وهو القاهرُ فوق عباده، وكلُّ ما قدّرَه فلحكمةٍ لا نعلمُها، ولكنّنا ندركُ آثارَها، فيما وقع من أحداثٍ، وما يقعُ من تصاريفَ.

فائدةُ الوصلِ في لفظ ﴿وَإِذْ﴾:

العطفُ يقتضي المغايرةَ، ويجمعُ المعاني لإبراز الدّلالةِ الكلّيّةِ للسّياق

جاء الوصلُ بالواو في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾؛ لإفادة مغايرةِ هذه الرُّؤيةِ لِما سبقها، فهي في اليقظة، وللإشعارِ بأنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يندرجُ في خِطاب: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ على أن يرَى الكَثيرَ قليلًا لا حَقيقَةً ولا تَخمينًا، ليكونَ الخطابُ بطريقِ التّلوين، فالإراءةُ هنا تختلفُ عمّا أراه اللّهُ تعالى لرسولِه[1] ﷺ.

مناسبةُ التّعبيرِ بـ﴿وَإِذْ﴾:

رؤيةُ اليقظةِ عند الفريقين من آياتِ الله الباهرةِ

لمّا كانَت ﴿وَإِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ لتعظيم شأن المذكورِ إذا تصدّرَت في الكلام، أفادَت هنا أنَّ ما ذُكِرَ بعدَها من رؤيةِ اليقظةِ عندَ الفريقينِ آيةٌ أخرى من آياتِ اللّه يومَ بدرٍ، ونعمةٌ كبيرةٌ أظهرها اللّهُ للمؤمنين يومئذٍ، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضّميران مفعولان، والمعنى: وإذ يبصِّركم إيّاهم، وقد يؤيّدُ اللّهُ المعجزةَ المناميّةَ، بالمعجزة المباشرة في حالة اليقظة؛ ليثبتَ تصرّفَ قدرتِه في جميع الأحوال، من نومٍ أو يقظةٍ، في الحال أو في المآل، ممّا ينفسحُ له كلُّ تعبيرٍ دامغٍ لكلّ باطل، وتشملُه كلُّ معجزةٍ من شأنها أن تكشفَ عن كلِّ يقينٍ لا يخالطُه إفكٌ، ولا تشوبُه ظنون.

دلالةُ ﴿إِذِ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾:

أفادَت ﴿إِذِ﴾ هنا في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

بيانَ وقتِ الرّؤيةِ، بمعنى: حصولِ الرّؤيةِ في وقتِ الالتقاء، ليكونَ الأمرُ أشدَّ تثبيتًا للمؤمنين، وأجرأ للكفّار على القتال، وفي ﴿إِذِ﴾ معنى التّعليل؛ بمعنى: أنَّ سببَ ما حصلَ من رؤية اليقظةِ للمؤمنين، هو التقاؤُكم بفريق المشركين.

حـصـولُ رؤيـةِ التّقليلِ للطّرفين في وقتِ الالتقاء

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾:

في قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ لمّا كان الالتقاءُ افتعالًا منَ اللِّقاء، وصيغةُ الافتعال فيه دالَّة على المبالغة[1]، دلَّ على أنَّ التقاءَ الفريقين كان على سبيلِ المقابلةِ، وجهًا لوجهٍ متماسّين؛ ليفيدَ قربَ بعضِهم من بعضٍ بحيث تكون الرّؤيةُ واضحةً، للإيذانِ أنَّ التّقليلَ الّذي حصل كانَ بآيةٍ من آياتِ الله، خصوصًا وأنّه تعالى مالكُ الملك، والمتصرّفُ في الكون بالمشيئة، وهو مُقلِّبُ القلوب والأبصار، يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ، لارادَّ لحكمه، ولا مُعقِّبَ لكلماته، ولذلك فهو قد أعطى مثالًا واقعيًّا ملموسًا في نصرة منِ اصطفاهم لتقواهم، ودحرِ مَن غضبَ عليهم لكفرهم الصُّراح، وفِسْقِهم البَواح، وهو العادلُ الّذي لا تضيعُ عنده حصائلُ الأعمالِ من أهل الهدايةِ، ولا صنوفُ المخازي من أهل الضّلال والغَواية.

التّـقـلـيـلُ آيـةٌ من آياتِ الله؛ لـشـدّة قـربِ الـفـريـقـين، وكـأنّـهـمـا متماسَّيْن

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾:

جاء الكلامُ على طريق الإطنابِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرّؤيةَ إذا أُطلِقَت لا تكون إلّا بآلتِها وهي الأعين، فكان ذِكْرُ ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ احتراسًا؛ لأنَّه لو لم يكن لمقصدٍ لكان مُستغنًى عنه، فجاء الاحتراسُ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ، من أنّ يكونَ المرادُ رؤيا المنامِ، ولِتأكيدِ أنَّ الرّؤيةَ بالأعينِ؛ ولينبّهَ على أنّ رؤيتَهم بالأعينِ قليلًا عددُهُم، يسيرًا أمرُهُم، ليست على حقيقة ما هم عليه؛

تأكيدُ أنَّ رؤيةَ المؤمنين كانت بالعين لا في المنامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.

أي: ليس كذلك في نفس الأمر، بل بفعلِ اللّه، ليكونَ آيةً من آياتِ اللّه تعالى[1].

دلالةُ الحالِ في لفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا - من قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ - حالٌ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ رؤيةُ العين، فالفعلُ يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ[2]، ولمّا كان الحالُ قيدًا لعاملِه، ولمتعلِّقاتِ عاملِه، أفادَ المعنى أنَّه تعالى أراهم المشركين قليلًا في أعينِهم، وليس في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ هذه الرّؤيةَ بهيئةِ القِلَّةِ كانت في وقتِ التقاء الفريقين، وليست مُطلَقةً؛ ليفيدَ أنَّ ما حصلَ في هذه الرّؤية آيةٌ من آياتِ اللّه أظهرها اللّهُ إكرامًا للمؤمنين، وليدلَّ على عنايةِ اللّهِ ولطفِه بهم، منذ بداياتِ الأمرِ.

الرّؤيةُ بهيئةِ القلّةِ، كانت في وقتِ التقاء الفريقين وليست مُطلَقةً

مناسبةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

عَبَّر بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ موافقًا لما ذكرَ في الآية السّابقةِ في اللّفظ والمعنى؛ ليدلَّ على أنَّ القليلَ الّذي حصل في النّوم تأكَّدَ بحصوله في اليقظة[3]؛ ليكونَ مُصدِّقًا لما أخبر به النّبيّ ﷺ عن رؤياه، تشريفًا لقدره ﷺ، وبيانًا لمكانتِه عندَ اللّه، وليجترأ المؤمنون على عدوّهم.

تصديقُ رؤيةِ العين لِما رآه رسولُ الله ﷺ في المنام

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة فعيل في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾:

لمّا تكرر وصفُ القلّة ﴿قَلِيلًا﴾ بصيغة (فعيل) في الآيتين أشعرَ بأنَّه وصفٌ لازمٌ ثابتٌ دائمٌ على المشركين، ماداموا بوصفِ الكفرِ، ومادامَ المؤمنون بوصفِ الإيمانِ، فتكون القلّةُ بمعنى لازمِها؛ وهو الضّعف[4].

قوّةُ الإيمانِ بمددِ اللّه، وضعفُ الكفرِ بخذلانِ اللّه وعقابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/404.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/290.

حِكمةُ التّقليلِ في رؤية العينِ للفريقين:

معجزةُ التّقليلِ؛ أنَّ اللهَ تعالى صدّ الأبصارَ، عن إبصارِ بعضٍ دونَ بعضٍ

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى أنَّ الرّؤيةَ كانت بالعين عندَ الطّرفين، دلَّ على إنفاذِ قضائِه في نصرةِ الإسلامِ وإظهارِه، فقلّلَ كلَّ طائفةٍ في عيونِ الأخرى، وإنّما جاءَ السّياقُ على معنى اعتبارِه آيةً من آياتِ اللّه؛ لأنَّ البصرَ قد يرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيرًا، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما ذلك بصدِّ اللّهِ تعالى الأبصارَ، عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ، مع التّساوي في الشّرائط، فوقع الخللُ في التّخمينِ والحَزْر الّذي يستعمله النّاس في هذا؛ لِتَتجَسّر كلُّ طائفةٍ على الأخرى في الحربِ، وتَتَسبّب أسبابُها، ويتجرَّأ كلٌّ منهم على قتالِ الآخر، ولا يطيل الأُهبةَ والتَّحضيرَ فيقعَ اللِّقاءُ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾:

المضارعُ يُعبَّرُ به عنِ استحضارِ الصّورةِ، وحكايةِ الحالِ

عبّرَ بالأفعال المضارعة في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ و﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ لحكاية الحالِ الماضية، ولتصويرِ تلكَ الحالةِ الغريبةِ[2]؛ ليستحضرَ المخاطَبون تلك الصّورة، حتّى كأنّهم رأيُ عينٍ أمامَ ساحةِ المعركةِ، ومعلومٌ أنّ الإراءةَ جاءَت "تصديقًا لرؤيا رسول الله ﷺ، وليُعاينوا ما أخبرَهم به، فيزدادَ يقينُهم، ويَجِدّوا، ويَثْبُتوا، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قُلِّلوا في أعيننا، حتّى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئةً! فأسرنا رجلًا منهم، فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا!"[3].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾:

تقليلُ المؤمنين لم يكن وصفًا ثابتًا، بل واقعة فعلٍ حصلَت قبلَ اللّقاء

عَبَّر بصيغة الفعل المضارع: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، دون الوصف بصيغة (فعيل)، كما وصفَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/214، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/94.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

العدوّ؛ للإشعارِ أنّها صيغةُ فعلٍ واقعٍ وقتًا قبلَ اللّقاء؛ ومادّةُ التّفعيل تدلُّ على الجعلِ، فصيغةُ الفعلِ تفيدُ أنَّ التّقليلَ ليس وصفًا، والمعنى: يجعلكم قليلًا؛ ليجترئوا على قتالِكم ومصادمتِكم[1]، وقد قال أبو جهل: إنّ محمّدًا وأصحابَه أكلةُ جزور، مثلٌ في القلّة، (كأَكَلَةِ رأسٍ)، أي: أنّهم لقلّتهم يكفيهم ذلك[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في عبارة ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾:

جاء الكلامُ على طريق الإطناب في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾؛ ليعلمَ أنَّ التَّقليلَ ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين في نفس الأمر، فهو في أعينهم فقط، "وهذا من شأنه أن يبعثَ في نفوس المشركين، أو في كثيرٍ منهم، مشاعرَ الاستخفافِ بالمسلمين، وعدمَ المبالاةِ بهم، وأخذَ الحذرِ منهم، وبهذا يفوتهم كثيرٌ من إحكام التّدبير، كما تتخلّى عنهم كثيرٌ من مشاعر الخوفِ الّتي تحملُ الإنسانَ على استجماعِ قواه، واستخراجِ كلِّ رصيدٍ في كيانه، لدفع الخطر الّذي يتهدَّده!"[3].

تقليلُ المؤمنين ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين، بل في أعينِ الكافرين

مناسبةُ تكرارِ قوله: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولًاۗ﴾:

قد يُقال ذكرتَ هذه الجملة في الآية المتقدِّمَة، فكان ذكرُها هنا محضَ التَّكرار، وجوابه أنْ لاتكرار؛ لأنّه لمّا اختلفَ الفعلُ المُعلَّلُ به أُعيدَ ذكرُ الجملة، فاختلفَ المعنى لاختلافِ السَّبب، وبيانُه أنَّه علَّلَ بها الجمعَ بين الفريقين، من دون ميعادٍ في الأولى، وفي هذه الآية علّلَ بها تقليلَ كلِّ واحدٍ منَ الفريقين، في أعين الآخر في الثّانية.

لا تَـكْـرارَ في الجملة لاختلاف الفعلِ المعلَّلِ بها، فالتَّكرارُ ثراءٌ لا ترادٌ

وأيضًا المرادُ بالأمر ثَمَّةَ الالتقاءُ على الوجه المَحكيِّ، وهاهنا إعزازُ الإسلامِ وأهلِه، وإذلالُ الشّركِ وحزبِه، أو يُقال: إنّه تعالى لمّا قلّلَ عددَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

المؤمنين في أعين المشركين بَيَّن هاهنا، أنَّه إنّما فعل ذلك ليصيرَ ذلك سببًا لئلّا يبالغَ الكفّارُ في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سببًا لانكسارهم، فيحصل به نصرُ المؤمنين وهزيمةُ المشركين[1].

مناسبةُ إيثارِ الإظهارِ موضعَ الإضمار:

تربيةُ المهابةِ في نفوس المخاطَبين إجلالًا لله تعالى، من مقاصد البيان القرآنيّ

جاء المسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ظاهرًا بعد إضماره في الجملة السّابقة؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوس المخاطَبين، ولزيادة الإيضاحِ والتّقريرِ عند المخاطَبين بذكرِ الاسم الّذي يخصُّه تعالى، ولما في مجيء الاسمِ الجليلِ من إظهارٍ لتعظيمِ ما قضى به سبحانَه ممّا هو آيةٌ من آياتِه يومَ بدرٍ، ولمناسبة كون ما قضى به كان مفعولًا ثابتًا واجبًا، فلا يقضي به إلّا الله تعالى[2].

دلالةُ الواو بين الاستئنافيّة والحاليّة:

العطفُ الصّوريُّ اعتراضٌ يقترنُ بالجملة التّذييليّة آخر السّياق

الواو في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لتكون الجملةُ بعدها تذييليَّة، خوطِبَ بها المؤمنون وغيرهم، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الواو اعتراضيّةٌ، والعطف يسمَّى اعتراضيًّا؛ لأنَّه عطفٌ صوريٌّ ليسَت فيه مشاركةٌ في الحكم، وهو اعتراضٌ في آخر الكلام؛ لاقترانِه بالجملة التّذييليّة[3].

بلاغةُ الحصرِ في الكلام:

كلُّ شيءٍ في الكون من بدئه إلى منتهاه، أمره راجعٌ إلى الله

لمّا تقدّمَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على المسنَد والمسنَد إليه ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ دلَّ على الحصرِ، وهو على معنى قَصْرِ القلبِ؛ أي: إلى الله لا إلى غيره، تُرجَعُ الأمور[4]. وإمّا على معنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/95.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 177 - 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.

قَصْرِ الإفراد؛ أي: إلى الله وحدَه تُرجَعُ الأمور. ويَحتمِلُ أن يكونَ على مجموعِ الوجهين لدخول جميعِ المخاطَبين في الكلام؛ بمعنى: إلى الله وحدَه لا إلى غيره تُرجَعُ الأمور[1]؛ ليفيدَ الحصرُ تقريرَ ما يعتقدُه المؤمنون، وتصويبَ ما يخطئُ به الكافرون في حكمِهم ومعتقدِهم.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾:

(أل) في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ استغراقيّة[2]؛ ليدلَّ اللّفظُ على أنّ المعنى: إلى الله وحده لا إلى غيره ترجعُ الأمورُ كلُّها، جليلُها ودقيقُها[3]، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّـهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، كما قال صاحبُ المنار: بمعنى "فلا يَنْفُذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قَضاهُ اللّهُ تعالى، وقَدَّرَ أسبابَهُ، وإنَّما القَضاءُ والقَدَرُ قائمانِ بسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، فهو لو شاءَ لَخَلَقَ في القُلوبِ والأذهانِ ما أرادَهُ بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبِتَقليلِ كُلٍّ مِنَ الجَمْعَينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غَيرِ أن يُرَتِّبَهُما على هذينِ السَّبَبَينِ، ولكِنَّهُ ناطَ كلَّ شيءٍ بسببٍ، وخلقَ كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ"[4].

كلُّ ما قدّرَ اللهُ في الحياة مرتبطٌ بسُنَنِ الأسبابِ والمُسَبَّباتِ

نكتةُ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾:

لمّا كانَت (أل)، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ استغراقيّةً؛ كان التّعبيرُ بصيغة المفردِ كافيًا في الدّلالة على استغراق الأمورِ كلِّها، فلمّا جاء بصيغة الجمعِ دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الأمور الذّواتُ والأحوالُ جميعُها[5]؛ لمناسبتِها سياقَ الكلام، بمعنى: إلى الله تُرجعون بذواتِكم، وإلى الله ترجعُ الأحوالُ الّتي رأيتموها في يومِ الفرقان منَ الإراءةِ المعتادةِ، والإراءةِ غيرِ المعتادة، والمعنى على العموم.

إلـــى الـلـه الـرّجـعـى، فلا مفرَّ إلى سِواهُ ولا شكوى

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1628.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/19.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.

دلالةُ لفظ ﴿تُرْجَعُ﴾:

تدبيرُ أمورِ الدّنيا كلِّها، مرجعُه إلى الله جلّ في علاه

في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لمّا كان الرّجوعُ بمعنى العودِ إلى ما كان منه البدءُ[1]، دلَّ على أنَّ تدبيرَ أمورِ الدّنيا كلِّها، وتصريفَها بدءًا ورجوعًا إلى اللّه وحدَه، فلا يصدرُ شيءٌ إلّا منه وعن قضائه، ولا ينفذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قضاه اللّهُ تعالى وقدَّرَ أسبابَه. وعبّر بالرّجوع للإشعار بأنَّ مآلَ الذّواتِ والأحوالِ في ما حصلَ يومَ الفرقانِ وفي غيرِه إلى اللّه تعالى وحدَه، فيجزي المحسنَ إحسانًا، وللمسيء العاقبةُ السّوءى أو المغفرةُ.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿تُرْجَعُ﴾:

كلُّ مايجري في الكَوْنِ مَقْدور وإلى اللهِ تُرجَعُ الأُمور

عَبَّرَ بصيغة المضارعِ في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ رجوعِ الأمورِ كلِّها إلى اللّه، وتجدّدِ رجوعِها حالًا فحالًا، وفي هذه الواقعةِ ومثيلاتِها في هذه الدّنيا، يقدّرُ اللّهُ الأسبابَ، "فيتمُّ تنفيذُ أمرٍ علمَه اللّهُ، وكان لا بدَّ أن يتمَّ، وإلى اللّه تُرجَعُ أمورُ العالمِ كلّه، فلا يَنْفُذُ إلّا ما قضاه، وهيّأ أسبابَه"[2].

أثرُ المجازِ العقليّ في توجيه القراءة القرآنيّة في قوله: ﴿تُرْجَعُ﴾:

كـلُّ الأمـورِ منقادةٌ بنفسها إلى إرادةِ الله خالقِها

في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، قرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيّ ويعقوب وخَلَف بفتح تاء (تَرجِعُ)، وقرأ الباقون بضمّها ﴿تُرْجَعُ﴾[3]: فعلى قراءة الفتحِ فـ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ فاعل، ويكون الإسنادُ على طريقِ المجازِ العقليِّ، والمعنى: (إلى اللّه تُرجعُ الأمورُ من تلقاءِ ذاتها إلى اللّه)، وفائدةُ التّعبيرِ بالمجاز الإيذانُ بأنّها منقادةٌ بنفسِها إلى اللّه. وعلى قراءة الضّمِّ حُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ وهو اللّهُ تعالى، فهو الّذي يُرجِعُها إليه، وفائدةُ البناءِ للمفعول توجيهُ الأنظار، إلى رجوعِ الأمور كلِّها إلى اللّه تعالى[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) الرّاغب، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 250.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/208-209.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»